الفصل الثالث

آسيا والتاج الملكى

أولاً: الإسلام فى آسيا

كانت منطقة شرق آسيا تسمى وإلى عهد قريب (شبه القارة الهندية) وذلك قبل أن يمزق الاستعمار الحديث أوصالها، وهى تبلغ فى مساحتها (١,٢٢١,٠٧٢) ميلا مربعًا أى ما يعادل مساحة أوروبا مجتمعة – غير روسيا.

قال المهتمون والباحثون فيها: أنها بلد مغلقة، وذلك لأنها تقع بين نهرين عظيمين أحدهما نهر السند، والآخر نهر الكنج، ويحدها البحر شرقا وغربًا، ومن الشمال سلاسل جبال الهملايا الشاهقة.

والهند هى بلاد المجتمعات والطبقات والشعوب، ومن ثم فإنها لذلك بلد الأديان، واللغات، واللهجات، والألوان، والأساطير، والأسرار.

ويمكن التأكيد على أن الهند كانت مركزًامن مراكز الحضارة القديمة فى العالم، وهى لا تقل عن الحضارة المصرية، والأشورية، والبابلية، والقرطاجية.

وكان الرحالة العرب من القحانيين (سابقى الذكر) هم أول من وطأت أقدامهم أرض الهند وقد عرفوها مبكرا بعد أن برعوا فى الإستفادة من تغيير حركة الرياح،وصناعة السفن حتى احتكروا تماما الملاحة فى المحيط الهندى.

ولا تختلف العقيدة فى الهند عن مثيلاتها فى إفريقيا حيث تنتشر عبادة أرواح الأجداد، والظواهر الطبيعية والأبقار، والنمور ... إلخ – أى – عبادة (الطاغوت).

وقد تعرضت الهند لغزو سلمى من الآريين فى حوالى ١٥٠٠ق.م، وتتمثل أهمية تلك الحادثة فى أنها قد ارتبط بها التاريخ الواضح للهند القديمة[١].

كما يجدر القول بأن الحضارة الهندية ارتبطت وإلى حد كبير بالحضارة اليونانية بعد غزو الإسكندر فى القرن الرابع قبل الميلاد، إلا أنه لم يتمكن من السيطرة على كل الهند، وبعد رحيل الإسكندر وضياع امبراطوريته فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ظهرت إمبراطورية (الوريا) الهندية[٢].

---

(١) حضارة الهند ص (١٠٠ ، ١٠١) غوستاف لوبون.

(٢) تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ج١ ص٢٨ د. أحمد الساداتى.

ثم نجح بعدُ الملك (داهر) فى انتزاع إقليم السند من القبائل الآرية التى كانت تحكمه، وقد عرف الإسلام طريقهُ إلى هذه البلاد فى عصر (الملك داهر) متخذاً له طُرقاً عدّةً ومجتازاً لعدة مراحل.

* * *

المرحلة الأولى

يقول « غوستاف لوبون » فى كتابه حضارة الهند ص٢٣٧ « وُجدت علاقات تجارية بين الهند والعرب قبل أن يظهر الإسلام، فقد كانت الهند من المحطات التجارية المهمة لدى العَرَب، كما كانت فى الطريق لتجارتهم مع ماليزيا وإندونيسيا والصين، وكانت التجارة العربية مع الهند تسير براً من مصر والشام على ساحل البحر الأحمر إلى اليمن ثم تبدأ المرحلة البحرية عن طريق حضرموت وعُمان والبحرين إلى كراتشى، أو عن طريق المحيط الهندى إلى الموانئ المختلفة بالهند.

وأضاف لوبون: إن التجارة كانت تصل مراكز الشرق كسمرقند وبغداد ودمشق بالهند مارة ببلاد فارس وكشمير.

وقد وجدت البضائع والمنتجات الهندية فى الأسواق العربية والإفريقية قبل الإسلام مثل (العنبر، العود، المسك)[١].

وعن طريق هذه الصلات والعلاقات التجارية القويّة. دخل عدد من الهنود الإسلام وبخاصة من الطبقات المَقْهورة والمتمردين على النظام الطبقى فى الهند الضائقين به، وقد تمتعوا جميعاً بالمساواة والعدل والإخاء الذى يدعو إليه الإسلام.

ويروى المؤرخون أن مراكز إسلامية أقيمت فى الهند للدعوة إلى الدين الإسلامى، وقد ساهمت فى هذا وإلى حد كبير تلك الزيجات التى تمت بين التجار والنساء الهنديات، وبدأ الإسلام ينتشر على أرض الأساطير والأوهام.

* * *

المرحلة الثانية

ما أن فتح الله بلاد فارس للمسلمين فى عهد الخليفة الفاروق (عمر ابن الخطاب)[٢] حتى بدأوا فى التطلع شَرْقًا، فأسلمتهم خراسان من دون قتال، ووضع المسلمون نُصب أعينهم بلاد السند ثأراً من ملكها (داهر) الذى ساند الفرس وأمدهم بالمال والرجال للتصدى للفتح الإسلامى وللحيولة دون زحفه، وقد كان ذلك

---

(١) المسالك والممالك ص٦١ ابن خرداذبة.

(٢) البداية والنهاية ج٤ ص١١٣ .

منه عندما إستنجد ملك الفرس بجيرانه، ولكن النصر كان حليفا بالمسلمين، ففتح ذلك الطريقَ لفتح السند رداً على تدخلها فى معركة القادسية.

هذا وقد تطوع (الحارث بن مُرّة) فى عهد أمير المؤمنين (على بن أبى طالب) بالتوجه إلى بلاد السند بقيادة جيش من المتطوعين بعد أن أذن لهم الخليفة فى ذلك، وكانت تلك أول الغزوات التأديبية الهادفة إلى الردع والتأديب، والتهذيب.

وفى عهد معاوية بن أبى سفيان أمر القائد الشهير (المهلب بن أبى صُفرة) بإرسال «عبدالرحمن بن سمرة» ففتح بلاد السند واستقر بها.

ثم استغل «الحجّاج بن يوسف الثقفى» واقعة اعتداء (داهر) على سفينة عربية بملاحيها، والإيقاع بهم فى الأسر، فأرسل جيشًا بقيادة «صِهرُة» ابن أخيه (محمد بن القاسم الثقفى) لفتح السند وتخليص النساء، وسلكت القوات مسلكًا بحريا بقيادة ابن أخيه، وسلك ابن القاسم الطريق البرى، ودارت معارك عنيفة، انتصر فيها المسلمون وانهزم الجند، وفرَ «داهر» هاربا وخضعت البلاد صُلحًا أو عُنوة، وخضعت السند كلها، وتقدم إبن القاسم حتى كشمير[1].

وممّا يذكُر المؤرخون أن عاملا مهما كان قد ساعد المسلمين على تحقيق النصر السريع على (داهر) وجيوشه هو الدعم الهائل والكبير الذى قدمه رجال قبيلتى (الميد، الجات) السنديتين للجيوش الإسلامية بعد أن تمردوا على ملكهم وانضموا لقوات الفتح الإسلامى، وقد أفادوهم كثيراً بالتعرف على أقصر الطرق وأيسرها، وبذلوا جهدًا مشكوراً، وقدموا عملا حميداً فى فترات القتال خاصة لشدة معرفتهم بمسالك السند ودروبها وأحوال أهلها وأساليبهم فى القتال[2].

ويعود السبب فى موقف (الميد، والجات) إلى كون القبلتين هاجرتا إلى خارج السند لفرط ما يعانونه من سوء معاملة الحكومة، إذْ كانوا فى عداد المنبوذين الذين يحرم عليهم امتطاء الدواب، وارتداء غالى الثياب ولم يكن يباح لهم من الحرف إلا أحقرها.

وفى العصر العباسى وأثناء ولاية «هشام بن عمرو التغلبى» سنة ١٥١هـ، تم فتح كشمير وملتان فى البنجاب وكَجَرات وبنى بها مسجداً يعتبر من أهم معالم الهند حتى الآن.

---

(١) فتح البلدان : البلاذرى ص٤٢٤.

(٢) تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ج١ ص٥٩.

المرحلة الثالثة: الدولة الغزنوية

التى أسسها التركى (ألب تكين) ٩٦٢ : ١١٨٧م . وجعل من غزنة بأفغانستان عاصمة لها، وحكمت امبراطورية واسعة شملت البنجاب، وأفغانستان، وشرق إيران، وقد قضى عليها الغزو المغولى بقيادة «جنكيز خان» .

أما زعيمها شبه الأسطورى فهو بطل الأبطال فى تاريخ أفغانستان (محمود الغزنوى) الذى جلس على عرش غزنه فى ٩٩٣م. وقد تمكن «محمود» من فتح خراسان، وسار شرقًا نحو الهند، وكان عدوه الرئيسى [راجا] البنجاب، وقد هزمه محمود واستولى على «ملتان» فى ١٠٠٠م وتوج نفسه سلطانا عليها.

حاول رؤساء الإقطاع هناك تكوين حلف مناهض للملك الغزنوى الفذ، ولكنه تغلَّب عليهم جميعا بسهولة، وبعد أن سقطت معاقل الهنود غرب نهر «كجرات» حمل «محمود» مشعل الإسلام إلى كشمير فى ١٠٢١م.

وقد خضع شمال شبه القارة الهندية من «غزنة إلى بنارس»، ومن الهملايا إلى الدكن، وقد امتدت مملكة الغزنوى من «فارس غربا إلى بهار شرق الهند».

كما ساعد انقسام الهند إلى إمارات وممالك متعددة، حيث كان هناك (راجا) دلهى، و(راجا) قنوج فى أودها ووادى الكنج، وآل بال فى «البنغال وبهار» أما الجنوب فكانت تسيطر عليه إمارات هندوسية ثلاث هى (جيرا، راجول، تبيندرا) وكانت كلها متحاربة فى صراع دائم[1].

وقد عُنى الغزنويون كثيرا بنشر الإسلام فى الهند، واعْتَبر محمود الغزنوى نفسه داعية إسلاميا، وكان مما سبب انتشار الإسلام فى الهند أن الغزنويين حزوا حزو التجار العرب المسلمين فتزوجوا من الهنديات فكونوا بذلك أسراً إسلامية بالهند وقربوا إليهم عددا من الهنود وعينوهم فى وظائف مناسبة مما قرب المسافة بين الفاتحين والبلاد المفتوحة.

ثم تعددت المراحل والأطوار، وتعددت بتعددها الدول فى شبه القارة الهندية ومن أهمها: دولة «الغوريون» وقد أسسها محمد الغورى ٥٩٩هـ وصار ملكًا على أفغانستان والهند، وسار فى الهند يُكمل زحفه ونشاطه حتى أصبح شبيها بالبطل شبه الأسطورى محمود الغزنوى فى نجاح فتوحاته بالهند، وفى تحطيم أصنامها وجذب كثير من سكانها لدين الإسلام، ثم دولة سلاطين دلهى، وجاءت الإمبراطورية المغولية من ٩٣٢هـ: ١٢٧٥ هـ - (١٥٢٦ : ١٨٥٨م) وقد بدأت هذه بدايتها الأولى من

---

(١) حضارة الهند ص ٢١٧ .

كابول فى عام ٩٦٠هـ وتلك قد أقامها «بابر» حفيد تيمور لنك على أرض أفغانستان، ومن كابول بدأ يوسع مملكته ويدعم سلطانه حتى مات ودفن فى كابول عام ٩٣٧هـ. وقد خضعت إيران لحكم المغول لفترات طويلة.

تمردت إيران على حكم المغول الذى دامت فى ظله عدة قرون، واستطاع الإيرانيّون بقيادة (اسماعيل الصفوى) أن يجتمعوا حتى تكونت الدولة الصفوية فى عام ٩٠٦هـ، ١٥٠٠م تقريباً[١]، وتتابع الحكام الصفيون حتى اتجهت الدولة الصفوية نحو النهاية وانحدرت سريعا بعد أن استطاع «نادر قلى» الإطاحة بالسلطان «أشرف بن ويس» الأفغانى ووضع على كرسى الحكم مكانه (طهماسب الثانى) الذى حكم باسم (الأداة) عشرة أعوام، ثم خلعه (قلى) ووضع مكانه ابنه عباس الثالث. ولما توفى بعد فترة وجيزة قبض (نادر قلى) على الأمور باسم نادر شاه وانقرضت بذلك أسرة الصفويين[٢].

وقد اهتم «نادر شاه» اهتماما بليغا بتجديد شباب الدولة الفارسية، وتقوية دعائمها، ثم زحف من إيران على البلاد المجاورة له، فتوجه إلى الهند فضم فى طريقه إليها «قندهار، وكابول»، ثم دخل لاهور جنوبى (باكستان الحالية)، واحتل البنجاب فى ١٧٣٨م، وقد حاول الإمبراطور المغولى (ناصر الدين محمد شاه) أن يرد نادر شاه عن غزوه لبلاده. ولكنه فشل، ووصل نادر شاه إلى دلهى، وقضى على الإمبراطور المغولى بعد أن أمَّنَهُ، وقد ثار المسلمون فى الهند ضد نادر شاه لموقفه من إمبراطورهم، ونتيجة لذلك أباح (نادر شاه) مدينة دلهى لجنوده، فعاثوا فيها فساداً، ودمروا وسلبوا ما استطاعوا، وكانت أبرز الأسلاب:

(الجوهرة النادرة) التى كانت فى تاج (شاهجهان) وقد تنقلت هذه الماسة من يد إلى يد حتى استقرت فى تاج ملك إنجلترا، ولازالت السليبة الهندية على رأس تاج الملوك البريطانى حتى الآن[٣].

وقد عاد نادر شاه إلى بلاد فارس بعد أن فَعَل ما فعل فى إمبراطورية المغول فى الهند، وتركها تصارع الموت وتَتَرَنّح من شدة هول ما لاقت على أيدى جنوده، وبذلك أصبحت فريسة سهلة للمتربصين بها من السيخ، والهنادكة، وطلائع الإنجليز التى قد بدأت حديثا فى الوصول إلى الهند.

---

(١) إيران فى ظل الإسلام ص٢١ د.عبد النعيم حسنين.

(٢) بتصرف من التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ص١٤٢: ١٥١.

(٣) يروى المؤرخون أن حادثة تخريب دلهى سنة ١٧٣٩ كانت نذيرا بسقوط الدولة المغولية.

وفى بادرة قوية تؤكد على انحدار الإمبراطورية المغولية وضياع هيبتها وقع قتال ضَارٍ بين المسلمين والهنود، حيث قاد (أحمد) ابن الإمبراطور المغولى (ناصر الدين محمد) الذى أراد أن يوطد سلطانه على دلهى بعد وفاة أبيه، أما الفرقة الثانية فكانت تحت قيادة (أحمد شاه الإبدالى – الأفغانى) الذى استولى على لاهور سنة ١٧٤٨م. وامتد سلطانه إلى دلهى، ساعدته على ذلك الثورات العارمة التى كانت تغمر بلاد الهند، هذا بخلاف النصر الذى تمكن به الإنجليز من احتلال منطقة البنغال.

وقد تدخل الإنجليز بعد هذا النصر تدخلاً صريحا فى شئون الهنود، أدمى نفوس الهنود جميعا مسلمين وغير مسلمين، وعمّت الثورات بلاد الهند بزعامة الملك (بهادور شاه) آخر ملوك المغول، ولم يستطع الثوار الصمود أمام الأسلحة الحديثة القتاكة فلحقت بهم الهزيمة.

وبدأت الهند أحرج مراحلها فى العصر الجديد تحت حكم الإنجليز الذى بفضله تمكنت شركة الهند الشرقية البريطانية والعاملين فيها من إلحاق الهزيمة بجيش (سراج الدولة) من أثر الخيَانة، وفتحت الطريق لبسط السيطرة البريطانية على الهند التى أتمّها الإنجليز على كل رُبُوع الهند فى ١٧٦٣م[١].

* * *

الهنود فى مجال الحضارة الإسلامية

جاء فى كتاب (سيَر الأعلام للذهبى) قوله (ولقد لعب عدد من الهنود أدواراً مهمة فى الحضارة الإسلامية)، ومن هؤلاء (أبوعطاء السندى) الذى نبغ فى الشعر نبوغًا عظيمًا، ومدح به خلفاء بنى أمية، وأوائل الخلفاء العباسيين، ومنهم كذلك « الأعرابى » وكان من أعلام اللغة العربية، وهو مؤلف كتاب « أسماء الخيل »، ومنهم « أبومعشر السندى » صاحب المغازى الذى نبغ فى علوم الفلك، ومنهم « صالح بن بهلة » الهندى – وكان بارعا فى الطب.

وإذا كانت هذه الأسماء قد برعت فى العصر الأول للإسلام فى شبه القارة الهندية، فإن المؤرخين يُجمعون على أن رجالات العصر الغزنوى قد تطورت الأمور فى حياتهم نحو الأفضل، حيث تضاعف الارتباط بين الهنود والمسلمين، وفُتح الباب أمام الهنود ليبرعوا فى الفكر الإسلامى وليكتبوا فى مجالاته المتعددة، حتى كانت المنافسة بين مدرسة الهند والمدارس العملية في القاهرة وبغداد.

---

(١) موجز تاريخ العالم ص ١٢٠ .

الهند فى ظل الإسلام

حمل الإسلام إلى الهند حضارة واسعة مختلفة الإتجاهات، عظيمة التكوين، فهى خليط عظيم من حضارة العدنانيين فى مكة، والحضرموتيين والقحانيين فى اليمن والفراعنة فى مصر والفارسية والأشورية والبابلية والرومانية، والفينيقية، بعد أن أثرت الحضارة الإسلامية فى الفكر العالمى كله باستيعابها للحضارات العالمية التى احتضنتها واحتوتها.

وقد أفرزت علوما متوسعة، وحضارة مهذّبة، وأنتجت عقولا تُبدع فى المعارف المتنوعة. فضلا عن رسالة التوحيد التى يُنادى بها الإسلام لعبادة الله الواحد الأحد، وليقرر لهم حق المساواة بين الجميع من دون تمييز لقوله ﷺ (الناس سواسية كأسنان المُشط)، كما يؤكد كذلك على حق الحرية الفكرية حيث كانت الهندوسية لا تسمح للبوذية بالبقاء فى الهند قبل دخول الإسلام.

وقد أوجد الإسلام فى الهند لأول مرة عبر تاريخها الدولة الواحدة التى تمارس عملها بأسلوب ديمقراطية الحكم فى وحدة سياسية واحدة، بعد أن كانت تتكون من إمارات عديدة، وقد ضمت هذه الدولة إلى جانب الهنود عناصر غير هندية كالفارسية التى أضحت لغة معمولا بها بين الحكام وحاشية البلاط، وقد أُسْتُعملت فى كتابة بعض الكتب والمؤلفات المفيدة فى شتى الموضوعات.

كما أدخل المسلمون إلى الهند كتابة التاريخ لأول مرة، وجعلوهم يهتمون بالعلوم والمعارف، واختفى العرى الجسدى، واتحدت الملابس بين الطبقات تقريبًا... وعاش الهنود مرحلة جديدة أقامت بين تخلف الماضى سترا وحجابًا، حتى تعرضت للهجمة الأوروبية الشرسة التى حدثت تباعًا بعد ذلك مع العبور الصليبى إلى آسيا.

* * *

ثانيًا : أفغانستان

قطر استراتيجى حيوى فى قلب آسيا، وهى ما تعرف بآسيا الوسطى، وتتشكل من مساحة غير منتظمة الشكل، لا تتصل ببحار من أى جهة، يحدها من الشمال الإتحاد السوفيتى، ومن الغرب إيران، ومن الشرق الهند، ومن الجنوب باكستان.

وتأتى أهمية أفغانستان الجغرافية من كونها تتحكم فى الطرق الاستراتيجية العالمية التى تؤثر بشكل كبير فى ازدهار حضارات، أو اندثار أخرى. كما أنها تقيم اقتصاديات دولة وتصيب بالكساد أخرى، كما أنها تمسك بمفتاح العبور بين الحضارات القديمة (الهندية – الفارسية – البابلية) وكذلك فهى تتحكم بمقدار فى التجَارة الإقليمية فى وسط آسيا والتجارة العالمية على السواء.

يتحدث أكثر أهل أفغانستان الفارسية، وبعضهم يتحدث الأفغانية، ويعود تاريخ ظهور أفغانستان كوحدة جغرافية مستقلة عند أواسط القرن الثامن عشر، أما فيما قبل ذلك فقد تأثرت ظروف أفغانستان تماما بظروف إيران من انتصارات وهزائم، فالغزو الآرى السلمى الوافد من الخليج دخل فارس، وتقدّم إلى آسيا الوسطى، ونزل أفغانستان، وكذلك زَحْف الإسكندر الأكبر، هذا وقد خضعت إيران وأفغانستان معًا للإخمينيين فى العصر الإخمينى.

وكانت أفغانستان تدين بديانتين محليتين شهيرتين فى آسيا هما (البوذية، زرادشت):

ويخلص بروفيسور (رومين) تاريخ أفغانستان قبل الاستقلال بقوله: (خضعت أفغانستان خلال قرون طويلة حتى القرن الثامن عشر لحكم الأمراء الهنود، ومرة أخرى لحكم الفرس، وثالثة لمملكة بخارى (تركستان، أوزبكستان، طاجكستان)[1].

وقد قاسى الأفغانيُّون تحت حكم الأمراء، وعانوا من اختلاف الأهواء التى سادت أمزجة ذلك الزمان كنتيجة مباشرة لإختلاف جنسيات الحكام ولغاتهم وأسلوب إدارتهم، مما انعكس تماما بالسلب على حياة الأفغانيين خاصة من شعورهم المستمر بالظلم والإضطهاد الذى دام بهم طويلا نتيجة لاستمراره كأسلوب حكم لرؤساء المناطق الأفغانية متعددة الأعراق والقوميات.

وقد كانت استجابة المناطق الأفغانية سريعة وقوية لدخول الدين الإسلامى الذى دخل بلادهم فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى عام ٢١هـ تقريبًا، ثم دخلوا جميعًا فى دين الله أفواجا بعد الفتح الإسلامى لكابول عام ٦٦١ : ٦٦٣م - ٤٢هـ فى عهد الحاكم الأموى معاوية بن أبى سفيان؛ حيث رحب الأفغان بالدين الجديد وأقبلوا عليه طواعية واختيارا.

وقد تعددت الممالك التى حكمت أفغانستان، وطال حكمها مشيداً إيران والهند ومناطق أخرى، حتى ظهرت أفغانستان الحديثة كدولة مستقلة عام ١٧٤٧م حيث التفَّ الأفغانيون حول زعيم من زعماء القبائل الأفغانية هو (أحمد خان الإبدالى).

وكان «أحمد الإبدالى» قائدا شهيراً فى فرقة قوية من (الإبدالية) وهو يتمتع بمكانة طيبة وقريبه من «نادر شاه» الذى اغتاله الفرس عام ١٧٤٧، فسار أحمد إلى قندهار واستولى عليها وجعلها عاصمته، ونادى لنفسه ملكا عليها ثم استولى على

---

(١) نقلا عن موسوعة التاريخ الإسلامى ج٨ ص ٢١٨ .

الجانب الشرقى من امبراطورية نادر شاه حتى نهر السند، وامتد سلطانه إلى ما وراء السند، وضم ولايات كشمير ولاهور وملتان.

وهكذا صارت أفغانستان الحديثة.

حتى مات فى ١٧٧٣ فخلفه ابنه تيمور الذى نقل العاصمة إلى كابول، وتعرضت البلاد فى عصره لهزة عنيفة وعوامل ضعف كثيرة هددت وجود الإبداليين من أهمها :

١- الاستعمار الإنجليزى الحديث الذى بسط نفوذه وسيطرته على كل الهند، ثم تحريضه السيخ على الثورة ضد الحكم الإسلامى لإرباك المسلمين ضمن مخطط كبير يهدف إلى القضاء على الوجود الإسلامى فى آسيا ومثيله فى إفريقيا وتحويل أنظار المسلمين بعيداً عن إبادة المسلمين فى جنوب أوروبا.

٢- بداية مرحلة جديدة فى حكم فارس هددت استقلال أفغانستان.

٣- تطلع الروس إلى جارتهم الأفغانية خاصة أنها مطمعا للبريطانيين، مما جعل روسيا تتطلع لبسط نفوذها على أفغانستان قبل بريطانيا.

٤- نشأة العديد من الصراعات الداخلية بين أبناء (تيمور شاه) نفسه من جهة ثم فيما بينهم جميعا وبين منافسيهم من القبائل الأخرى من جانب آخر وهم (البارکزائيون) .

وفى فترة حكم « شاه » ابن تيمور شاه الذى كثرت انحرافاته، وتعددت مساوئه وتراكمت أخطاؤه - فعزله أخوه - وعرفت هذه الإمبراطورية طريق النهاية بهذا المسلك.

آل الأمر إلى الأسرة البارکزائية ١٨٢٦ : ١٩٧٣ بقيادة (دوست محمد) الذى تولى حكم البلاد، بعد أن نجحت المؤامرات فى تقسيم البلاد باستقلال الولايات الخارجية، وقنع حكام هذه الدولة بلقب أمير بدلا من شاه.

على الرغم من ذلك فإن تاريخ هذه الأسرة ملئ بالصراعات بين الأفغان والقوى الغازية من الخارج خاصة بريطانيا، التى لا تألوا جهدا فى استغلال الخلافات الداخلية كوسيلة فعّالة للتدخل فى الشئون الداخلية للدول الأخرى. من ذلك مساعدتهم لأسرة « الدّرانية » المخلوعة ضد الحكم البارکزائى القائم، وتذرعت بذلك وادخلت حامیتها العسكرية، ولكن أفغانستان ألحقت بهذه الحامية هزيمة ساحقة وأبادتها عن آخرها سنة ١٨٤١م عند ممر (خرد كابول) وقد سُجِّل هذا الحدث فى التاريخ البريطانى الملكى كواحدة من أكبر المحن والمصائب التى ألمت ببريطانيا آنذاك.

حاولت بريطانيا الثأر لكبرياء تاجها، واستعادت مكانتها فقامت بحروب متعددة انتهت آخرها بحرب «١٨٧٨م» والتى استمرت حتى عام «١٨٨١م» وقد أنزل الأفغانيون هزائم متتالية ومروّعة وقاسية بالإنجليز، وقد حققوا انتصارات ساحقة فى معركة (ميوند) بقيادة الأمير (سردار أيوب) حيث فقد الإنجليز جيشا بأكمله.

ثم قدم الإنجليز وقود حروب جديدة ابتداء من ١٩١٩ حتى ١٩٢١ وقد حقق الأفغان ألوانا من النصر على الإنجليز، واعترفت بريطانيا على إثرها باستقلال أفغانستان فى اتفاقية (روالبندى).

ولعل الدور الذى اضطلعت به أفغانستان منذ ما قبل عصر الغزنويين وإصرارها على قيادة الفرس والهند وبعض دول الجوار عبر تاريخ طويل منذ عصر الفتوحات الإسلامية حتى أصبحت عضواً فى هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٦، بالإضافة إلى الإضرار المباشر بالمصالح الاستعمارية فى شبه القارة الهندية خاصة بعد الهزائم القاسية التى تلقتها على أيدى الأفغانيين.

لعل ذلك هو ما جعل أفغانستان مستقرّةً فى بؤرة شعور الإستعمار فى العصرين الحديث والمعاصر، حيث أن قيام حكم إسلامى فى أفغانستان السُّنّية المتحمسة لدينها، المتشددة لصالح أمتها، فضلا عن جوارها الملاصق وارتباطها الاجتماعى والثقافى والجغرافى مع الباكستان مما يجعل إحدى الدولتين بمثابة الفناء الخلفى لأمن الدولة الأخرى ـ فهذا كله يهدد مصالح الغرب بالكلية لا فى الوسط الأسيوى فحسب بل فى الشرق الأسيوى كله، وسوف تصيب آثارهُ الجوار الإسلامى الفارسى والعراقى بما قد يعيد للأذهان وعلى أرض الواقع أمجاد الأجداد القريب، ومن ثم إحباط محاولات الغرب الصليبى الاستعمارى، وهو ما عبرّ عنه الرئيس الأمريكى الأسبق (ريتشارد نيكسون) صراحة بقوله المشكلة هو الإسلام ـ قالوا وما الحل؟ قال: أن نأتى بأبناء المسلمين ثم نرسلهم إلى بلادنا كى نحقنهم بثقافاتنا ونعيدهم إلى بلادهم ثم أضاف يجب على روسيا وأمريكا أن تتحدا للحيلولة دون قيام حكم إسلامى فى أفغانستان(١).

ولعلنا بذلك نكون قد قدمنا ما يدحض ما يروجه الإعلام الغربى حاليا وما يقدمه من تصوير الأفغانيين على أنهم مجموعة متخلفة من الجنس البشرى تعيش فى كهوف الجبال وتأكل العُشب والكلأ، وتشرب من الآبار وتعيش على زراعة المخدرات فى سفوح الجبال.

---

(١) تبصير الأذهان ببعض المذاهب والأديان.

وما أظنُّ ذلك يُجدى إلا عند من يجهل حقيقة التاريخ ولا يدرى طبيعة الجغرافية. وهذه هى الطامة الكبرى فى وقتنا المعاصر. حيث الترويج الإعلامى الغربى الهادف إلى طمس حقائق التاريخ، وترويج الأباطيل من أجل تبرير الحملات الشّرِسَة على إخوة الدين أبناء الأمة فى الشرق والغرب على السواء.

إن الاستعمار وحده وهو صاحب المصلحة الكبرى، يسانده عملاؤه من بنى جلدنا يروجون بل ويُجَبُرون على إظهار أفغانستان فى هذه الثياب البالية من التخلف والهمجية والغوغائية. وأن الشعب الأفغانى فى مسيس الحاجة إلى قائد يقوده، و(بابا) يرعاه. وما حقيقة ذلك إلا صنيعة استعمارية خالصة – داوم الاستعمار على صُنعها واستمرار وجودها، حتى واتَتْهُ الفرصة على طبق من ذهب بعد أحداث ١١/٩/٢٠٠١ حيث ذهب الأبوان (بوش – بلير) لرعاية الشعب الأفغانى وحمايته من طاعون جديد اسمه (الأصولية الإسلامية) القاتلة.

* * *

ثالثًا : الشرق الأقصى

ويقصد به مجموع الجزر الشمالية (اليابان)، وجزر (الفلبين) فى الوسط، وشبه الجزيرة الكورية والصين، وقد نَجَت هذه المناطق تماما من السيطرة الاستعمارية التى وُجدت بالفعل فى الوسط الأسيوى لمجموعة من الأسباب من أهمها:

١– وجود إمبراطوريتين كبيرتين – قويتين هناك هما (اليابانية – الصينية).

٢– خلو هذه المناطق من الفتح الإسلامى سواء فى ذلك السلمى منه أو العسكرى بما يجعلها آمنة من التهديدات الاستعمارية الوافدة.

٣– وجود كثافة سكانية هائلة فى الصين تشكل فى ذاتها درعا بشرياً كبيراً ومنيعًا حتى لا تطأ أرض المستعمرين الأراضى الصينية.

٤– بُعد اليابان الجغرافى الذى بلغ الأقاصى بما يجعل من احتلال تلك المناطق مغامرة عديمة الجدوى لانعدام المردود الاقتصادى العاجل منه والآجل أو ندرته.

٥– الحرص الاستعمارى الشديد على التواجد العلنى حيث وُجد الإسلام والمسلمون وذلك لأن الدين الإسلامى واللغة العربية هما الهدف المنشود من كل الحروب التى يشنها الصليبيون على العالم الإسلامى، فأينما وجد صليبيون فإن غايتهم من دون كل غاية هى القضاء على لغة القرآن الكريم، لأجل أن تنتشر مسيحيتهم المحرّفة فى مواجهة الزحف الإسلامى ومقاومته.

وفى ذلك يقول صحفى غربى «إن الشيوعية أفضل من الإسلام لأنها فى الأصل فكرة غربية يمكن الإلتقاء معها أما الإسلام فلا التقاء معه إلا بالحديد والنار»[١].

(١) تبصير الأذهان ص ٧.

وقد أكد على ذات المعنى رئيس الوزراء البريطانى الأسبق (ويليام جلادستون) فى المدة من (١٨٨٠ : ١٨٨٥) والذى فى عهده احتلت القوات البريطانية مصر عام ١٩٨٢م بحجة إخماد الثورة العرابية، ثم بقيت مصر تحت الاحتلال البريطانى حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ وتنفيذ إتفاقية الجلاء فى ١٩٥٤ حيث قال: (ما دام هذا القرآن موجوداً فى أيدى المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق)[١].

وقد بدأت البرتغال سعيها المبكر نحو جزر اليابان فى ١٥٤٢ حيث جلبت إليها أسلحة نارية بدائية تسمى « الغدارات ».

وفى عام ١٦٠٠م امتدت الإمبراطورية الأسبانية إلى جزر الهند الشرقية بعد أن بدأت أسبانيا عصر الكشوف الجغرافية وتمكنت من احتلال أيبريا، وأغلب أمريكا الجنوبية وأجزاء من إيطاليا.

وفى عام ١٦٥٥م استولى الهولنديون على جزيرة (جاوا) إحدى جزر أندونيسيا التى دخلها الإسلام عام (١٤٠٠) سلما عن طريق التجار المسلمين الذين كانوا يجوبون البحار الجنوبية للتجارة مع الشرق وجلب بضائعه.

أما التدخل الأجنبى المباشر فى شئون الصين والذى حدث للمرة الأولى فلم يحدث إلا مع دخول البعثات الدينية الكاثوليكية إلى الصين بعد أن سمحت حكومة البلاد لتلك البعثات التبشيرية التى تأتى فى طليعة المخططات الصليبية لتنصير الصينيين، وإغلاق كل الأبواب والمنافذ فى وجه الدعاة المسلمين الذين عرفوا طريق الصين منذ أمد بعيد.

ولم تلبث هذه البعثات التبشيرية أن مارست أعمالا لا تتفق وطبيعة مهامها الدينية، وذهبت إلى أبعد من ذلك بكثير، مما أجير حكومة الصين إلى إصدار قرار يقضى بحظر نشر الديانة المسيحية على أراضيها، وبين مواطنيها بعد بدء انتشارها على أيدى المبشرين الغربيين.

وقد ظل العرب متمتعين مفردين دون غيرهم من التجار الصليبيين بالتجارة مع الموانئ الصينية حتى جاء ١٨٥٦م حيث تآمرت فرنسا وبريطانيا ضد الصين، وأعلنتا عليها (حرب الأفيون) الشهيرة التى استمرّت حتى عام ١٨٦٠م حيث أرُغمت الموانئ الصينية على التجارة مع الغرب فى العام ذاته.

وكانت بريطانيا قد هزمت الفرنسيين فى موقعة (وند يواش) بجنوب مدراس بالهند عام ١٧٦٠ وقَضَت على منافَستهم تماما، ودانت لهم الهند بالسيطرة وفى العام

---

(١) المصدر السابق ص٧ .

التالى تمكن البريطانيون من السيطرة على جزر الهند الغربية كلها التى خضعت تماما فى (١٧٦٣م).

وفى عام ١٨١٥ حصلت بريطانيا على [الكاب، وموريشيوس، وجزيرة أسنشن، وهيليجوالندا، وسيلان، وتوباجو، وسانت لوتشيا] من خلال تسوية ما بعد الحرب مع فرنسا.

توسعت بريطانيا فى سياستها الإستعمارية حتى حدثت الإضطرابات، ووقعت حروب السيخ فى المدة من ١٨٤٥ : ١٨٤٩م فضمت بريطانيا معقلهم (إقليم البنجاب) إلى مستعمراتها فى الهند.

وعملت بعدُ على إستقطاب جماعات بعينها، وأفراد بوصفها، ثم قامت بإعدادهم، وتدريبهم، وتأهيلهم، وحقنهم بثقافتها الغربية الصليبية، ودست فيهم من يزعمون أنهم مسلمون من بعض ما يسمى بالمذاهب الإسلامية من (الإسماعيلية والأحمدية، وغيرهم) ممن اطمأنت إليهم. وقد باتوا جميعا على أُهبة الإستعداد للإنطلاق نحو الخطوة القادمة للزحف الكبير إلى إفريقيا بعد أن دانت (شبه القارة الهندية) بالخضوع للإستعمار الإنجليزى وبعض الجنسيات الأخرى الذين تسابقوا جميعا نحو المرحلة الجديدة يدفعهم إليها البحث عن مواطن المعادن والثروات، والإستيلاء عليها قبل السيطرة الإسلامية القادمة.

فكان العبور إلى القارة الخام (البكر) لنهبها واغتنامها، وتضييق الخناق على التُّجار المسلمين، ومُحاصرة رجال الدَعوة الإسلامية من أجل محاربة الإسلام، والتضييق والتشديد عليه، ولأجل تسهيل عمل جماعات التبشير المسيحى.

* * *

رابعًا: جنوب شرق آسيا

وهى المنطقة التى تقع جغرافيا إلى الشرق من شبه القارة الهندية باتجاه الطرف الجَنُوبى، وتتكون من مجموعة من الدول هى (بورما – لاوس – فيتنام – كمبوديا – تايلاند (سيام) – الفلبين – ماليزيا – سنغافورة – اندونيسيا) بالإضافة إلى (فطانى) التى تقع بين شبه جزيرة الملايو وبين تايلاند، ومن المعروف أن (فطانى) كانت سببا إلى الآن فى نزاع مستمر بين تايلاند التى تتبعها فطانى إداريا، وبين ماليزيا التى ترى أنها امتداد لشعبها وأرضها. وغير كل ذلك فهناك منطقة (برونى) وهى جزيرة صغيرة تقع إلى الشمال من جزيرة (بورينو).

وقدعانت منطقة جنوب شرق آسيا أشد المعاناة من الاستعمار الذى لم ينج منه إلا تايلاند التى تُركت كمنطقة محايدة لخدمة التسويات الاستعمارية بين الدول الاستعمارية التى كانت تسيطر على المنطقة طبقا للوضع التالى :

فرنسا: سيطرت على لاوس، وكمبوديا .

البرتغال: سيطرت على فيتنام ثم ورثتها فرنسا.

أمريكا: سيطرت على الفلبين .

هولندا: سيطرت على اندونيسيا.

وقد نجحت شعوب تلك المنطقة فى التخلص من الاستعمار الغَرْبى، ولكن النفوذ الشيوعى تسرب حديثا إلى بعض دولها مثل (لاوس – ڤيتنام – كمبوديا) .

وتجدر الإشارة إلى أن ڤيتنام قد تم تقسيمها إلى شمالية موالية للإتحاد السوڤيتى، وجنوبية موالية للولايات المتحدة الأمريكية، وقد نجح الشماليون فى الزحف نحو الجنوب، وتمت وحدة الشطرين تحت النفوذ الشيوعى، كما تمكنت فيتنام من التسلطً على كمبوديا اليسارية الموالية للصين، ومن ثم أصبحت كمبوديا وڤيتنام تدوران فى الفلك السوڤيتى.

واجتهدت الولايات المتحدة على الإبقاء على مصالحها فى المنطقة من جانب ومن آخر للوقوف أمام المد الشيوعى، وتحجيمه، واتخذت لأجل ذلك أساليب متنوعة، انتهت إلى اتجاه بعض دول الجنوب الشرق آسيوى إلى التحالف مع الغرب مثل (تايلاند، ماليزيا، الفلبين، سنغافورة) أما بورما واندونيسيا فقد انضما إلى مجموعة دول عدم الإنحياز.

أما المجتهد فى قراءة التاريخ فإنه يستخلص وجود عدد من الديانات والملل والنِّحل المتنوعة والمتعددة فى الأقطار التى خضعت للنفوذ الصينى والتى تعتبرها الصين امتدادا لأراضيها، وكذلك فإنه يتحقق من حقيقة فرض الديانة المسيحية قهراً على الفلبين بسبب خضوعها المبكر للاحتلال الأسبانى، بينما يحصل له اليقين فى أن الإسلام أنقذ جزر الملايو قبل أن تذوب فى الزحف الصينى، بحيث يمكن القول أن شعب الملايو اعتنق الإسلام دينا وقومية، وكذلك يمكن التأكيد على أن الإسلام امتد إلى الجزر التى لم تكن امتداداً للأراضى الصينية، أما فيتنام فالمسلمون فيها عدد قليل يؤرقهم الدفاع عن وجودهم بمصارعة الشيوعية.

وتفيد الإحصائيات الوارده عن المصادر غير المقربة [1] أن عدد المسلمين بمنطقة جنوب شرق آسيا على وجه التقريب باعتبارهم أقليات فى بعض البلدان كالآتى:

---

(١) بعض المواقع على شبكة المعلومات الدولية (إنترنت) .

الفلبين : ٩٠٠٠٠٠٠ تسعة ملايين نسمة.

تايلاند: ٤٠٠٠٠٠٠

بورما : ٣٠٠٠٠٠٠

كمبوديا: قرابة المليون مسلم.

لاوس: حوالى ٢٥٠,٠٠٠ مائتين وخمسين ألف نسمة .

أما مأساة الشعب الفلبينى فلابُدّ من إلقاء بعض الضوء عليها حيث أنها تمثل أحد أوجه الهجمة الصليبية الغَربية الشرسة على المسلمين فى ديارهم، والتى لم تفرق فى همجيتها بين سحق المسلمين فى أوروبا والهجوم عليهم فى ديارهم ومواطن دينهم بغرض القضاء عليهم أو تنصيرهم حتى فى أقاصى الشرق من العالم.

وقد تعرضت الفلبين فى العصر الحديث لعوامل اضطرابات مختلفة أثرت فى عقيدة أبنائها، وغيرت مجريات الفكر الدينى بها على الرغم من دخول الإسلام أراضيها فى مراحل مبكرة لدرجة كانت من الممكن أن تكون من مجموع الجزر الفلبينية دولة قوية كما فعل بأندونيسيا.

ويرجع السبب فى ذلك لأن الفلبين التى تتكون من مجموعة من الجزر تشكل فى مجموعها دولة واحدة تخضع لسيادة امبراطورية (ماجابيت) التى انهارت مع أواخر القرن الخامس عشر.

وعلى إثر إنهيار الإمبراطورية بدأت بعض الجزر الفلبينية إما فى التفكك وإقامة ممالك مستقلة أو فى التجمع لتكوين مملكة أكبر، وكان الإسلام دين غالبية الشعب الفلبينى .

ولم يستمر بهم الحال هكذا طويلا، ففى عام ١٥٢١ دَهَم تلك الجزر الاستعمار الأوروبى الصليبى الأسبانى الذى كون من هذه الجزر دولة واحَدة أسماها الفلبين نسبة إلى الملك الأسبانى (فيليب الثانى).

وقد جاء الأسبان إلى هذه المنطقة وهم يحملون فى رؤوسهم وصدورهم الفكر والحقد الصليبى على الإسلام والمسلمين، فقاوموا الإسلام مقاومة جبارة، وأكرهوا الناس على اعتناق المسيحية كما يذكر المؤرخون (بالحديد والنار) وأسسوا معاهدهم

الكاثوليكية هناك، وحاولوا طمس الهوية الإسلامية، والقضاء على كل مظاهر الحياة الإسلامية وهدم مؤسساتها.

وهذا المسلك يفسر ما للأسبان من تاريخ خاص فى الصراع الصليبى الإسلامى بعد أن حاربوا الإسلام وأبادوا المسلمين فى أسبانيا ثم زحفوا إلى الفلبين وفعلوا بها ما فعلوا حتى باتت الفلبين هى الدولة المسيحية الوحيدة بين دول منطقة جنوب شرق آسيا مجتمعة.

* * *

خامساً : ردة الفعل الصليبية

بعد أن تغلغل الإسلام فى القارات الثلاث، وبدأ عصر التحولات الكبرى بفضل انتصار الفتوحات الإسلامية التى حققت عظيم النتائج والآثار فى المناطق التى خضعت مباشرة لسلطة المسلمين، خاصة تلك المستعمرات الأوروبية الكثيرة التى اعتنق أهلها الدين الإسلامى بعد أن حررهم المسلمون من تبعية الكنيسة وعقيدتها الضالة وطقوسها البغيضة، تماما كما حدث فى الفرس والروم (القسطنطينية) وفى مصر وشمال إفريقيا منذ فجر الإسلام.

وقد بدأت أوروبا مؤخراً بعد أن أخذت تفيق من غفوتها فى الوقوف فى وجه الإسلام ومصارعته، حيث رأت أن حضارته دماراً لها ورحيلا لدورها ونهاية لوجودها، فنهضت واجتهدت فردته عنها، واقتحمت عليه آسيا وإفريقيا .

وتلك كانت نقطة إنطلاق الغرب فى نشر المسيحية عن طريق التنصير القسرى أو جماعات (إرساليات) التبشير، أو من خلال تجارة الرقيق التى ارتبطت بالأوربيين، ولا يعود السبب فى هذه الرغبة الجامحة إلى وازع دينى يتعلق بنشر المسيحية نفسها، ولكن لإضعاف المسلمين والقضاء على الإسلام، وشغله فى دياره بمعارضين من بيئته، وقد عملت لأجل ذلك فى محاور مختلفة ليتحقق لها ما أرادت، وقد كان لها على مراحل مختلفة من أبرزها:

– الاستغلال الجيد للأحداث، والتوفيق فى توظيفها، فما أن توفى السلطان العثمانى « محمد الثانى » (١٤٨١م/ ٨٩٦ هـ) وهو يستعد لغزو إيطاليا، وحدثت بذلك فترة من الهدوء، حتى تمكن أحد قادة الأندلس (مركيز قادش) من الإستيلاء على حصن « الحمه » فى قلب الأندلس، والموقف الإستراتيجى لغرناطة يبدأ فى التدهور من جراء ذلك، ومع مطلع « ١٤٨٣م، ٨٨٨هـ» تم تعيين الكاردينال السفاح « توركيمادا » رئيسا لمحاكم التفتيش فى إسبانيا[١] وقد شرع بدوره فى اضطهاد

(١) سنتحدث عنها لاحقًا إن شاء الله تعالى ضمن كتابنا/ أغوار العالم الإسلامى أعاننا الله على إخراجه.

المسلمين، وقد تعاظم دوره بَعد سقوط غرناطه (١٤٩٢م / ٨٩٧هـ) وقد سقط على عقبها حصن (لورة) الإسلامى الاستراتيجى فى أيدى (فرديناند، إيزابيلا) اللذان تزوَّجا فى عام ١٤٦٩م. وقد تم توحيد مملكتى (قشتاله، الأراجون) بما مهد لانتزاع غرناطة من أيدى المسلمين، وازداد الموقف سوءا على المسلمين ثم سقطت مدينة (رُندة) الجبلية القوية التحصين سنة ٨٩٠هـ ١٤٨٥م فى أيدى (فرديناند، وإيزابيلا) وغرناطه تتبدد قواها، وفى ٨٩١هـ سقطت (لوشه) الأندلسية، وظهرت لأول مرة المشاركة الأوروبية فى الحرب حيث ظهر جليا الدعم الهائل الذى تلقاه الأسبان أثناء القضاء على الدولة الإسلامية فى الأندلس، حيث شاركت قوات إنجليزية فى المعركة بقيادة اللورد (اسكليز) بينما حكام العالم الإسلامى (سلاطين الممالك فى مصر، سلاطين السعديين فى المغرب، سلاطين العثمانيين) يتقاعسون عن نجدة الأندلس، (تماما كما حدث فى عام ٢٠٠٣ حيث تقاعس حكام العالم العربى الإسلامى أجمعين عن نجدة بغداد التى سحقتها أمريكا وبريطانيا وبولندا واستراليا، وإذا التمسنا عذراً للسابقين بحجة أن الأندلس تقع فى البطن الأسبانى وفى الأرض الأوروبية، فما هو العذر إذاً للاحقين إذا كانت بغداد تقع فى قلب العالم الإسلامى وهى البوابة الشرقية للأمن القومى العربى الجماعى والإقليمى على السواء والتاريخ شاهد على ذلك.. ولا حول ولا قوة إلا بالله).

وفى عام ١٤٨٧م / ٨٩٢هـ سقطت «مالقة» بعد حصار قاس، وقَصْف شديد بالمدفعية الذى لم تُجد معه المقاومة الباسلة العنيدة التى أبداها القائد الأندلسى «عبدالله الزغبى»، ولبسَ على إثر ذلك المسلمون لباس العار، والتصقت بهم الفضيحة الكبرى؛ حيث تمكن الأسبان من الإمساك بخمسة عشر ألفا من سكان «مالقه» المسلمين، وحرائر المسلمات. وباعوهم فى سوق الرقيق لأول مرة فى التاريخ الإسلامى. ثم سقطت «بسطة» فى ٨٩٤هـ ١٤٨٩م بعد مقاومة شديدة لحصار عنيف من قوات فرديناند وإيزابيلا.

ومع تضييق الخناق، وإحكام الحصار الصليبى على غرناطة، ومع استمرار العجز العربى والإسلامى اضطر حكام المدينة إلى توقيع شروط تسليمها للإسبان المسيحيين فى ٢٥ / ١١ / ١٤٩١، ونظراً لقوة العدو الغاشمة المدعومة كثيرا من جانب الأوروبيين، ارتضى هؤلاء الحكام شروطا مهينة أفضت عليهم استسلاما ندموا عليه فيما بعد فى وقت لم ينفع فيه النَدَم.

وجاء اليوم الحزين فى تاريخ الأمة الإسلامية، حيث دخَلت القوات الأراجونية بقيادة فرديناند، والقشتالية بقيادة إيزابيلا إلى غرناطة آخر المعاقل العربية الإسلامية فى

الأندلس بعد تسليمها لهم فى الثانى من ربيع الأول ٨٩٧ هـ الموافق الثالث من يناير ١٤٩٢م بموجب شروط المعاهدة، وبذلك فقد العرب فردوسهم الزاهر، وخرج أبو عبد الله الصغير (أبو عبدالله محمد) آخر ملوك بنى نصر – يبكى فقالت له أمه « كالنساء ملكا لم يحافظ عليه كالرجال ».

وأُجبر المسلمون على التنصير فى أسبانيا، وقُتل منهم من أَبَى بعد بداية عمليات الإضطهاد الشامل لمسلمى الأندلس الخاضعين للحكم الأسبانى حيث بدأ كردينال غرناطة المجرم (خمينيث) فى ٩٠٣ هـ الموافق ١٤٩٨م مشروعه الحقير فى تنصير المسلمين، ومنحهم مهلة لاعتناق المسيحية، وإلاّ حاق بهم الموت وبرر ذلك برغبته فى إنقاذ أرواحهم الضالة بحسب زعمه.

● تطويق العالم العربى والتضييق عليه: فبعد أن تمكن البرتغالى (فاسكوداجاما) فى ١٤٩٨م من اكتشاف رأس الرجاء الصالح إلى الهند، تأثر العالم العربى تأثُّرًا مباشرًا بعد أن فقدت مصر والعراق والشام أهميتها التجارية والاقتصادية الناتجة عن تحكمها فى طرق التجارة بين الشرق والغرب (كما سنبين لاحقا تفصيلا لذلك)، ومن ثم انتقل الثراء التجارى إلى بلاد الغرب ومعه كل مُقَوِّمَات القوة والعز والسؤدد، وبعد حوالى عشر سنوات استطاع الصليبيون التواجد على أرض العرب باحتلال مسقط (سلطنة عُمان الحالية) منذ عام ١٥٠٨ : ١٦٤٨م بالقرب من القلعة الإسلامية (بيت الله الحرام) فى مكة المكرمة، حتى تمكن الفرس من طردهم فى ١٦٤٨م، وكان البرتغاليون قد أقاموا من قبْل أول حصن دفاعى أوروبى على الشاطىء الإفريقى على الساحل الموريتانى فى سنة ١٤٤٨م، ثم أقاموا قاعدة تجارية على ساحل الذهب (غانا) فى سنة ١٤٨٢ .

● الهجوم على المسلمين فى ديارهم: حيث تمكن الغرب الصليبى بعد تحويل تجارته إلى رأس الرجاء الصالح فى بداية عصر الكشوف الجغرافية، وقد دخلت هولندا وأسبانيا إلى مجال المنافسة لأجل اكتشاف العالم الجديد، على أنقاض ما تعلموه من العرب، وهو ما تمكنت بفضله أوروبا من شدة الثراء والتقدم فى مقومات القوة والعزة والسيادة فى مقابلة العالم الإسلامى المتحلل إلى القطرية والجزئية، فضلا عن الآثار السيئة التى أحاقت بالعالم العربى نتيجة لتولى عناصر غير عربية شئون العالم الإسلامى، والتى ظهرت علنا بدحول السلطان العثمانى « سليم الأول » إلى القاهرة فى يناير ١٥١٧م وأسْرِه للخليفة العباسى، وإعدامه للسلطان المملوكى « طومان باى ».

الأمر الذى جعل الأوروبيين على أعتاب مرحلة جديدة مكنتهم من بسط سيطرتهم على معظم دول العالم بعد الإكتشافات الجغرافية التى بدأها « كريستوفر كولمبس » الذى تمكن من عبور المحيط الأطلسى سنة ١٤٩٢ فى طريقه إلى الهند عن طريق الغرب، واكتشف فى رحلته تلك جزر (البهاما، وكوبا ، وهبانيولا).

وبدأ التنافس الأسبانى البرتغالى فى اكتشاف الأمريكتين ثم اقتسامها بعد، حتى دخلت فرنسا وبريطانيا لاحقا.

● وَضَعَ العالم الإسلامى نفسه طواعية فى مهب الريح العاتية بعد انهيار الدولة العباسية والتى على إثرها انتقلت الخلافة إلى القاهرة، فمنذ ذلك الحين بدأت قيام الدويلات القزمية على أنقاض الخلافة العباسية مترامية الأطراف ومن أشهر هذه الدويلات (اليزيدية فى طبرستان – إيران، الجستانية فى شرق إيران، « الطولونية » فى مصر، « السامانية » فى ما وراء النهر وبخارى وسمرقند، « القرامطة » فى العراق، « الحمدانية » فى حلب، « الفاطمية » فى مصر، « البويهية » فى فارس، « السلجوقية » بشمال إيران، « الغزنوية » بأفغانستان، « الصنهاجيين » فى تونس، « الأغالبة » فى تونس، « الطاهرية » فى خراسان، « وبنى عباد » فى الأندلس، و« بنى حماد » فى الجزائر، و« الصليحية » فى اليمن، « المرابطين » البرابرة فى المغرب الأقصى، « الأدارسة » فى المغرب) وكل هذه التطورات السياسية وما يصحبها من تدهورات اجتماعية واقتصادية وقعت فى المدة بين ٧٨٩ : ١٠٥٦م الموافق ١٢٤ : ٤٤٦هـ تقريبا.

● وقد استغل الأوروبيون طرد السلاجقة من آسيا الصغرى وبدأوا حملتهم المنظمة لإرباك الشرق والهجوم على الإسلام فى دياره بفضل ما استطاعوا من تحقيق أقصى استفادة ممكنة من المعطيات والمستجدات، وما ملكوا من إدارة جيدة وتخطيط منظم حتى تمكنوا من الهجوم الشرس مباشرة على العالم الإسلامى حتى واتتهم الفرصة لدخول بيت المقدس (كما سيأتى فى حينه بيانه) وقد تكرس الوجود الصليبى فى فلسطين بعد سقوط (عكا) القاعدة البحرية لمصر الفاطمية فى أيدى الصليبيين فى عام ١١٠٤م، ثم استطاعوا السيطرة على طرابلس الشرق لتصبح دولة صليبية رابعة إلى جوار انطاكية فى ١١٠٩ ، والرها وبيت المقدس، ثم سقطت بيروت

وصيدا فى أيدى الصليبيين فى ١١١٠م، وقد استطاعوا بفضل انشغال العرب بقضاياهم الداخلية أن ينتزعوا البرتغال، من أيدى الحكم العربى الإسلامى، وتأسست المملكة البرتغالية عام ١١٣٩م ثم انتزع مَلِكها مدينة لشبونة من أيدى المسلمين عام ١١٤٤م .

● بوازع من الإنتقام ورغبة فى التدمير، بدأت الهجمة الهمجية الأوروبية على الساحل الشمالى لإفريقيا حيث القلاع والحصون الإسلامية التى دخلت أوروبا وحكمت بعض مناطقها ما يربو على الخمسمائة عام، كما أن تلك الهجمات الشرسة كانت تهدف إلى القضاء على المسلمين فى أوطانهم وبتر بنانهم، للحيلولة دون قيام دولة إسلامية قوية تعود إليهم من جديد وهو ما يجعل الحدود الجنوبية الأوروبية آمنة تماما ضد أى فتح إسلامى جديد .

* * *

obeikandl.com